المقـــدمة

الحمد لله، الخالق على غير مثال، المصور فى أبهى آيات الحسن، وأروع غايات الجمال، سبحانه، ولا إله غيره، هو الكبير المتعال. والصلاة والسلام على هادى البرية بعد الضلال، الذى بلغ فى الفصاحة والبلاغة حد الكمال، تحدث فسحر القلوب وبهر العقول بحسن المقال، وقام للناس على الأخلاق مثلا؛ "كذلك يضرب الله للناس الأمثال".

اللهم صلي وسلم، وبارك عليه، وعلى أصحابه؛ أفضل الرجال، وأزواجه؛ أمهات المؤمنين، الطيبات، كريمات الخصال، وعترته، الطيبين، الذين ملأوا الأرض علما، وعدلا وتقوى، صلاة، وسلاما دائمين متلازمين إلى يوم الزوال، وارزقنا حبهم؛ فإنك لطيف؛ خبير عالم بما يعترى القلوب من المواقف والأحوال.

وبعـد ،،،

فقد قال عمر رضي الله عنه: من أفضل ما أعطيته العرب: الأبيات يقدمها الرجل أمام حاجته فيستعطف بها الكريم ويستنزل بها اللئيم، وقال أيضاً: تعلموا الشعر، فإن فيه محاسن تبتغى، ومساوئ تتقى؛ وكتب إلى أبي موسى الأشعري: مر من قبلك بتعلم الشعر فإنه يدل على معالي الأخلاق وصواب الرأي ومعرفة الأنساب؛ ومن أروع ما قالته شعراء العرب، قصيدة المدح، الذى كان وما يزال يرفع بناء الفضيلة، ويعلى مكارم الأخلاق، قال أبو تمام:

وَلَولا خِلالٌ سَنَّها الشِعرُ ما دَرى بُناةُ العلا مِن أَينَ تُؤتى المَكارِمُ

كما أن قصيدة المدح لم تزل تؤرخ للأحداث الكبار؛ فى تاريخ أمتنا الإسلامية والعربية؛ فهى – بحق- وثائق تاريخية فنية، تصور الوقائع، والأحداث كما لو كانت ترى وقد حفل العصر الأيوبى بأحداث كبار، من الحروب، والمنازعات، والمعاهدات والمصالحات؛ بين المسلمين والصليبيين؛ مما أوجد لدى الشعراء مادة خصبة للمديح؛ إذ رأوا فى قادتهم أبطالاً ترتفع على أيديهم قيم البطولة الشجاعة.

كما كان الكرماء: من السلاطين، والأمراء، والقادة؛ يصطنعون الشعراء، بما تسحه سحابات أيديهم، لتخصب خيالاتهم، فتلهج ألسنتهم بالثناء، وتخط أقلامهم المدائح العصماء؛ طلباً لعطاء، أو شكرا على نعماء؛ فبلغت قصيدة المديح (فى هذا العصر) من التجويد، والتهذيب، والتصنيع، مبلغا عظيما.

بيد أن شعراء المديح ما يزالون متهمين، فتارة بالكذب والنفاق، وتارة بالتسول والارتزاق، وتارة بالتقليد، وجمود المشاعر، وكأن إظهار المحاسن، أو رفع المثل يضادُّ الطبيعة، أو ينافى الأخلاق.

ومن هؤلاء؛ الشاعران: ابن سناء الملك، والبهاء زهير؛ إذ كادت الدراسات التى تناولت الشاعرين؛ تسقط قصائد المدح من نظرها؛ من حيث القيمةُ الفنيةُ، وتتجاهل جمال التصوير فيها، فكان ذلك وغيره – مما يلى- دافعا للباحث؛ ليخوض غمار هذا البحث.

أسباب اختيار الموضوع:

كان الاتهام -الذى أشرت إليه آنفا- دافعا لى إلى أن أتعرف إلى جماليات قصيدة المدح فى العصر الأيوبى من خلال التعرض لها فى طريقتين مختلفتين، هما طريقة التصنيع عند ابن سناء الملك وطريقة السهل الممتنع عند البهاء زهير. وتجلى ذلك فى دراسة البناء الفنى لقصيدة المدح وخصائصه، وقد عضد هذا الدافع أسباب أُحَرْ تمثلت فى رغبة الكاتب فى:

- أن يستجلى مظاهر البطولة، فى صور الشاعرين آنذاك، من خلال التعرض للصور الفنية التى رسمت نموذج "الشجاع" فى أحواله المختلفة؛ حيث اهتمت بتصوير المعارك الحربية، وعرض صور الجنود وأدوات القتال، وأجواء المعارك، والموازنة بين رؤية الشاعرين لهذا النموذج وتصويرهما له.

- أن يتعرف إلى نماذج الكرم، والعطاء عند الشاعرين، ويوازن بينها؛ من خلال دراسة هذه الصور الفنية، التى تعنى بتصوير نموذج "الكريم"، سواء فى طبعه، أو تصوير عطاياه.
- أن يتعرف إلى تجربة الشاعرين وأبعادها المختلفة فى قصيدة المدح؛ لدى كل من الشاعرين؛ ليقف على صدقهما الفنى والواقعى، وأن يتبين مدى الاحتشاد العاطفى والإدراك العقلى، والقدرة اللغوية لدى الشاعرين.
- أن يتبين طبيعة اللغة عند الشاعرين، ويستجلى مقدار ما وقع لهما من ألفاظ عامية أو ألفاظ غريبة، أو أجنبية، ويرى إن كان ذلك ظاهرة عامة عندهما، أم هو مقدار ضئيل لا يدمغ شعرهما بالعيب.
- أن يعرف أسلوب الشاعرين فى تركيب الصور الفنية وعرضها، والسمات المميزة لأسلوب كل منهما.
- أن يتعرف إلى طبيعة الموسيقى فى الصورة، وما يتميز به إيقاع الصورة عند كل من الشاعرين.
- أن يتبين ملامح الخيال ومنطلقاته الطبيعية والوجدانية والذهنية، وأثر البيئة فى صور كل من الشاعرين.
- أن يستجلى أثر العلوم التى تلقاها الشاعران فى بيئتهما، وما تركته من أثر فى إبداعهما، وأن يتبين كذلك أثر المهنة التى عمل بها الشاعران – وهى مهنة الكتابة فى صورهما الفنية.
- ومن الأسباب أيضا ما قرأه عن أسلوب الشاعرين، لا سيما فيما يتعلق بقصيدة المدح مما حفزه إلى أن يدفع عنهما هذا الحيف، بتحليل للصورة فى الجو الذى تولدت فيه محاولا التزام الحياد فى التحليل والنقد.

- لما كان الكاتب على علاقة قديمة بديوانى الشاعرين؛ فقد رأى فى قصيدة المدح عندهما من الجمال ما يستحق الدراسة، ويتطلب الجهد؛ للكشف عنه؛ فكان هذا الموضوع: "الصورة الفنية فى قصيدة المدح بين ابن سناء الملك والبهاء زهير تحليل ونقد وموازنة".

الدراسات السابقة:

أولا، فى شعر ابن سناء الملك :

١- ابن سناء الملك حياته وشعره، ماجستير، دار العلوم أعدها محمد إبراهيم نصر قبل عام ١٩٦٧، إذ نشرها فى ذلك العام كتابا، وهى دراسة تاريخية فنية يجمع فيها الكاتب آراءه التى اتفقت له أثناء قيامه بتحقيق ديوان الشاعر، وكان نصيب الدراسة الفنية فيها قليلاً كما أن نصيب الصورة فيها لا يتعدى ثلاث صحائف.

٢- مقاومة الغزو الصليبى فى شعر ابن سناء الملك، ماجستير مخطوطة -بكلية الآداب بجامعة عين شمس أعدها إبراهيم نمر موسى، سنة ١٩٨٩، وهذه الدراسة اهتمت بالشعر الحماسى الذى يتعلق بموضوع الحروب الصليبية، فى شعر ابن سناء الملك وهمشت ما سواه فى قصيدة المدح؛ إذ لم يكن هدفها تتبع المديح كله، ويغلب الجانب الموضوعى فيها على الجانب الفنى.

٣- شعر ابن سناء الملك دراسة أسلوبية، دكتوراه مخطوطة بكلية الآداب بجامعة المنوفية ١٩٩٧، برقم ١٤٥٦٧، أعدها بهاء محمد محمد عثمان. وهى دراسة أسلوبية إحصائية تهتم بتجميع الظواهر دون تحليلها أو نقدها إلا فى حدود ضيقة، وهذا النوع من الدراسات بلاغى الطابع، وهو يقدم إلى أقسام البلاغة فهو خارج لذلك بطبيعته عن الطابع الأدبي فى الدراسة.

٤- التصوير البيانى فى ديوان ابن سناء الملك، ماجستير مخطوطة بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر- فرع إيتاى البارود، وهى أيضا مقدمة إلى قسم البلاغة والنقد فى الكلية وينصب اهتمامها على فروع علم البيان من تشبيه أو كناية أو استعارة، فهى

بطبيعتها تباين الدراسات الأدبية التى تضع فى الحسبان الملابسات التاريخية والسياسية والاجتماعية والنفسية التى يتولد فيها النص.

ثانيا: فى شعر البهاء زهير:

١- بناء القصيدة عند البهاء زهير ماجستير مخطوطة بمكتبة جامعة عين شمس برقم ١٦٣٤٠،أعدها طارق عبد التواب كامل، وهى رسالة درست شعر البهاء زهير من ناحية بنية القصيدة ثم تعرضت للبنيات الصغرى التى تتكون منها القصيدة، ولكن جل اهتمامها كان منصبا على شعر الغزل عند البهاء بينما كان نصيب قصيدة المدح فى الدراسة قليلا جدا. وقد راجعت كثيرا من آرائها التى تتعلق بقصيدة المدح فى صلب هذه الرسالة.

٢- الأسلوب الشعرى عند البهاء زهير. ماجستير مخطوطة؛ بكلية اللغة العربية بالمنصورة أعدها: خالد محمد عبد الحميد صبره، ١٤١٤هـ ١٩٩٠، وهى فى مكتبة الميكروفيلم بمركز الشيخ صالح كامل؛ تحت رقم: ٢٤١٥/١. وهى تدرس شعر البهاء؛ من حيث الأساليب اللغوية، والبيانية وكان حظ المدح فيها أكبر نسبيا من الرسالة المشار إليها آنفا، ولكن حظ الصورة من قصيدة المدح من حيث تحليل موضوعها والوقوف على جماليات التصوير فيها كان قليلا.

٣- شخصية مصر فى شعر البهاء زهير، ماجستير مخطوطة، بمكتبة كلية البنات، جامعة عين شمس؛ تحت رقم ٥٦٢، ٨١١ / م.ج، أعدتها: ماجدة جمال الدين أحمد، سنة ١٩٧٦، وقد اهتمت الباحثة فيها، بتتبع الروح المصرية فى شعر البهاء زهير وكان حظ المديح من هذه الروح – كما ترى الباحثة – قليلا.

والحق أن الكاتب قد أفاد من هذه الدراسات، ورجع إليها فى كثير من مشكلات بحثه، إذ بذل فيها أصحابها جهودا طيبة، غير أنها تضمنت بعض الآراء، والأحكام التى صدرت عن وجهات نظر تغايرها وجهة نظر الباحث، مما جعله يعرض لها بالمناقشة.

الصعوبات التى واجهت الكاتب:

وقد كان من أكبر المشكلات التى قابلتنى: مشكلة التجرد من أثر ما أقرأ لاسيما والكثرة الكاثرة من النقاد الذين درسوا هذا العصر، يكادون يتفقون على جمود هذا الشعر وضعفه؛ من ناحية تعبيره عن الوجدان، وأنه شعر متكلف لا قيمة له؛ إلا ما بذل فيه من جهد لصنع ما يصلح أن يكون شواهد، تنفع دارسى البديع، لاتخاذها نماذج مدرسية يستدل بها على كل نوع بديعى.

كما كان استخلاص الآراء، التى تتعلق بقصيدة المدح؛ لدى شاعرينا من كتابات النقاد الذين كتبوا عنهما، (لتحليلها ونقدها والرد عليها أو موافقتها) أمرا بالغ الصعوبة إذ نصيب قصيدة المدح من التعرض قليل، والحكم عليها –بمخالفة الطبع وفتور العاطفة يكاد يكون معلوما سلفا، غير أن الكاتب لا بد أن يقرأ كل ما يتعلق بموضوع بحثه.

كما كانت قلة المراجع التى تتناول قصيدة المدح فى ذاتها لذلك العصر، من المتاعب التى واجهت الكاتب أيضاً، كما أن قصيدة المدح منذ الأعشى حتى يومنا هذا ما زالت متهمة، لا ينصفها إلا القليل، على الرغم من كونها السجل الذى يضم صور البطولات العربية والإسلامية، ويرفع لواء المثل العليا، والأخلاق الفاضلة، والقيم التى يجب أن تحتذى، فهى صحف تربوية، وأسانيد تاريخية؛ تكشف عن حياة هذه البطولات وأحوال هؤلاء الأبطال.

ولن أكون مغاليا ولا مدعيا؛ إذا قلت إن ما تمر به أمتنا العربية، والإسلامية، فى أيامنا هذه؛ كان بالغ التأثير فى نفسى، وأعصابى، فكثيرا ما كنت أسأم العمل، وأرى أنه باطل وقبض ريح، حينما أرى، وأسمع ما يحدث للمسلمين فى كل مكان؛ ولكنى كنت أهدهد نفسى وأذكر ما تذكرنى به هذه الرسالة من أن الأيوبيين زمن صلاح الدين ما استردوا الأقصى إلا بالإيمان والعلم والصبر، فأعود إلى العمل يثقلنى الهم، بينا يحدونى الأمل.

منهج الدراسة :

أما عن منهج الدراسة فقد نحوت فيه منحى تحليليا فنيا، فى الأغلب؛ ولكنى عرجت على بعض المناهج الأخرى عند الحاجة إليها مثل المنهج النفسى، والمنهج التاريخى، كما أننى لا أخفى تأثرى بالمنهج البنيوى الذى يهتم بالنص أكثر من اهتمامه بملابساته التاريخية والاجتماعية ، والسياسية، ومن هنا نستطيع أن نحكم على منهج هذه الرسالة بأنه مزاج تكاملى كان الهدف منه خدمة الأدب، بتسخير المناهج له.

عرض الدراسة :

وقد شاءت إرادة الله أن يأتى هذه الدراسة فى بابين:

الباب الأول، وعنوانه: الصورة الفنية مفهومها وإطارها وروافدها وموضوعاتها ويتضمن أربعة فصول:

الفصل الأول وعنوانه: الصورة مفهوما ومقياسا؛ وهو يتناول مفهوم الصورة ودلالات أوصافها المتعددة، وما ينبغى لها من التكامل، وكيف تصبح الصورة مقياسا نقديا، وما دور الناقد فى اكتشافها.

وأما الفصل الثاني وعنوانه: إطار الصورة (بناء القصيدة) بين الشاعرين؛ فقد تناول بنية القصيدة ووحداتها المتمثلة فى المقدمة وحسن التخلص والموضوع، والخاتمة مبينا الخصائص الفنية الموضوعية لكل وحدة من هذه الوحدات بين الشاعرين.

وأما الفصل الثالث وعنوانه: روافد الصورة الفنية بين الشاعرين؛ وقد تناول ثقافة العصر وعلومه وأثرهما فى الصورة الفنية؛ وتناول أيضا مهنة الكتابة وأثرها فى الصورة بين الشاعرين.

وأما الفصل الرابع وعنوانه: موضوعات الصورة الفنية فى قصيدة المدح بين الشاعرين؛ فقد تناول تصوير الشاعرين لنموذج الكريم؛ من حيث كرم نفسه، وهيئته، وكفيه

وعطاياه؛ أما المبحث الثانى؛ فقد تناول تصويرهما لنموذج الشجاع وملامحه والحرب وجنودها وخيولها وأدواتها.

وأما الباب الثانى وعنوانه: عناصر تشكيل الصورة بين الشاعرين" فقد اشتمل على أربعة فصول:

الفصل الأول؛ عنوانه: التجربة وأبعادها فى الصورة بين الشاعرين، وتناول مفهوم التجربة وملابساتها، وكشف عن مميزات التجربة عند الشاعرين من حيث العاطفة ومن حيث الإدراك العقلى.

والفصل الثانى، عنوانه: اللغة وأسلوب التصوير بين الشاعرين؛ وتناول اللغة وخصائصها عند كل من الشاعرين؛ ودرس أسلوب التصوير بين الشاعرين وعرض لأسلوب التصوير عند ابن سناء الملك، -وهو أسلوب الصنعة- فتناول مفهوم الصنعة، وحدودها، وأسباب اختياره لها، والأصول البديعية التى قام عليها أسلوبه. وعرض لأسلوب التصوير عند البهاء زهير، -وهو أسلوب السهل الممتنع- فبين مظاهر أسلوبه، من مداخلة الغزل لمديحه، وتعبير شعره عن طبعه وشخصيته وبين مظاهر استخدامه للصنعة البديعية.

أما الفصل الثالث، وعنوانه: "الخيال فى الصورة الفنية بين الشاعرين؛ فقد تناول الخيال بين الشاعرين، من حيث علاقته بالطبيعة؛ ومن حيث بين التقليد والتجديد، ومن حيث الوضوح والغموض ومن حيث تعدد أبعاد الصورة؛ مستعينا بتحليل النماذج والموازنة بينها.

والفصل الرابع عنوانه: الموسيقى فى الصورة بين الشاعرين؛ وهو يتناول الموسيقى الخارجية من حيث الأوزان وعلاقتها بالموضوعات، والقوافى من حيث الحروف الأكثر استخداما، ومن حيث الإطلاق والتقييد. كما يتناول الموسيقى

الداخلية، فيدرس أشكال الموسيقى الداخلية عند الشاعرين ويبين القيمة الموسيقية، والأثر التنغيمى لكل شكل من أشكالها كالجرس، والتوازى التركيبي والتقسيم، والقافية الداخلية والتكرار.

ثم تلت ذلك خاتمة لخصت الدراسة وقيدت أهم ما تمخض عنه من النتائج، ثم قفى الكاتب على أثر الخاتمة، بفهرس للمراجع التى رجع إليها واستقى منها آراءه، أو ناقش ما اعترض وجهته من آراء أصحابها؛ ثم فهرس آخر لعناوين الرسالة بأرقام الصفحات التى وردت فيها.

وبعد،،،

فهذا هو البحث، أعلم أنه جهد المقل لكن حسبى أننى اجتهدت فيه قدر طاقتى فما ادخرت جهدا، ولا وقتا ولا مالا، فما كان فيه من إحسان فمن الله تعالى، وما كان غير ذلك فمن نفسى، ومن الشيطان .. والله من وراء القصد؛ أسأله تعالى أن ينفع بهذا العمل وأن يجعله لوجهه خالصا إنه نعم المولى ونعم النصير وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

obeikandl.com

ملحق للتعريف بالشاعرين

وقد اخترت للتعريف بهما ما كتبه الدكتور شوقى ضيف عنهما في كتابه "عصر الدول والإمارات: مصر" في سلسلة تاريخ الأدب العربي في صحيفة ص ٢٠٣، ٢٧٨، وذلك لأنه تعريف واف وموجز.

أولا ، ابن سناء الملك[١] :

هو القاضى السعيد هبة الله بن القاضى الرشيد أبى الفضل جعفر بن القاضى المعتمد سناء الملك السعدى ولد سنة ٥٥٠ بالقاهرة في بيت يسار ونعمة، إذ كان أبوه وجده من كتاب الإنشاء في الدولة الفاطمية، كما يدل على ذلك تلقيبهما بلقب القاضى الذى كان يمنح لكبار الكتاب، وكانت قد انعقدت صلة وثيقة بين جده وأبيه وبين القاضى الفاضل حين كان يعمل معهما في الدواوين الفاطمية. ولما تطورت الظروف وأصبحت مقاليد الحكم في مصر بيد صلاح الدين واتخذ القاضى الفاضل وزيراً له ومستشاراً قرب الفاضل منه جعفر بن سناء الملك وتوثقت الصلة بينهما حتى كان ينيبه عنه في غيبته مع صلاح الدين بالشام.

وعنى جعفر بتربية ابنه هبة الله منذ نعومة أظفاره، فعهد إلى بعض القراء بتحفيظه القرآن الكريم، حتى إذا حفظه اختلف إلى حلقات العلماء وخاصة حلقة ابن برى أكبر أئمة اللغة والنحو المصريين حينئذ . وأكب ابن سناء الملك يقرأ كتب الفقه وعلم الكلام والمنطق على نحو ما يشهد بذلك استظهاره في أشعاره لبعض مصطلحات هذه العلوم في الحين بعد الحين، ودفعه طموحه العلمى إلى الارتحال إلى الإسكندرية لسماع الحديث على السنى

(١) أنظر في ترجمة ابن سناء الملك وأشعاره الخريدة (قسم شعراء مصر) ٦٤/١ ومعجم الأدباء ٢٦٥/١٩ والمغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) ص٢٧٣ وابن خلكان ٦١/٦ وعبر الذهنى ٢٩/٥ والشذرات ٣٥/٥ وحسن المحاضرة ٢٤٣/١ وبدائع البدائه لعلى بن ظافر وخزانة الأدب للحموى في مواضع متفرقة ومقال للدكتور شوقى ضيف بعنوان : " الروح المصرية في شعر ابن سناء الملك " في كتابه : " فصول في الشعر ونقده" ص ١٧١ ، و"ابن سناء الملك : حياته وشعره" لمحمد إبراهيم نصر ومقدمة محمد عبد الحق لنشرته للديوان في الهند، ونشره وحققه في القاهرة محمد إبراهيم نصر، وهناك ترجمة وافية له في كتاب الأدب في العصر الأيوبي لمحمد زغلول سلام، وقد ترجمت له كل الرسالات العلمية التي ذكرتها في الدراسات السابقة.

الكبير الحافظ السلفى أحمد بن محمد؛ وقد أكب على دواوين الشعراء يلتهمها كما أكب على الموشحات الأندلسية في طليعة عمره كما يقول في مقدمة كتابه النفيس "دار الطراز" .

وقد تفتحت موهبة ابن سناء الملك الشعرية مبكراً تفتحاً راع القاضى الفاضل كبير أدباء زمنه، فاستاذن أباه في في أن يتخذه كاتباً بين يديه، وأذن له وأضف عليه من إعجابه بشعره ووده ما أصبح به أبا روحياً له ولفنه. ومن خير ما يصور هذه الأبوة الروحية كتاب ابن سناء الملك المسمى" فصوص الفصول " ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية والكتاب في جمهوره مراسلات بين ابن سناء الملك وأبيه جعفر من جهة وبين القاضى الفاضل من جهة ثانية حين كان يذهب إلى الشام في رفقة صلاح الدين، فيكاتب الشاعر وأباه، وخاصة حين يرسل إليه ببعض مدائحه في أو في صلاح الدين.

ويشيد الفاضل بموشحاته كما يشيد بأشعاره رافعاً منزلته فيها على منزلة الأندلسيين درجات. ويهمنا ما يسجله كتاب فصوص الفصول من أنه كان ناقداً كما كان شاعراً.

وكان ابن سناء الملك يعيش في رغد من العيش، لثراء أبيه، وفى الديوان أنه أهداه مرة بستاناً ومرة فندقاً. وظل موظفاً في ديوان الإنشاء منذ بواكير حياته، وبعد وفاة صلاح الدين واستعفاء القاضى الفاضل من عمله ظل يعمل في الديوان مع السلطان العزيز ثم أخيه السلطان الأفضل ثم السلطان العادل وابنه الكامل، حتى إذا كانت سنة ٦٠٦ عهد إليه السلطان الكامل بتدبير ديوان الجيش، غير أنه استعفاه فأعفاه . ولم يلبث أن توفى سنة ٦٠٨؛ ولم يكن يعمل مع كل أولئك السلاطين فحسب، بل كان يقدم إليهم مدائحه وكانوا يجزلون له في العطاء، وبالمثل كان يجزل له في العطاء أمراء البيت الأيوبي حين كان يمدحهم، وفى ديوانه مدائح كثيرة لهم ولصفى الدين بن شكر وزير السلطان العادل فالأموال كانت تغدق عليه بالإضافة إلى راتبه وما ورثه عن أبيه مما يؤكد أنه عاش مترفاً منعما. وفى ديوانه أشعار كثيرة يصف فيها داره التي كانت تطل على النيل وحديقتها وما كان بها من

نـافورات، وكانـت منتـدى للشـعراء مـن أصـدقائه وكانـت تجـرى بيـنهم فيهـا محـاورات ومفاكهات طريفة، وأهم من استفد مدائحه صلاح والقاضى الفاضل.

ثانيا : البهاء زهير: (١)

هو بهاء الدين زهير بن محمد، ينتهى نسبه إلى الملهب بن أبى صفرة القائد المشهور في العراق وإيران زمن بنى أمية، ولد لأبوبه المصريين في وادى نخلة بالقرب من مكة في أثناء حجهما خامس ذى الحجة سنة ٥٨١. وكان أبوه رجلاً صالحاً يشهد بذلك وصفة على نسخة خطية من الديوان بدار الكتب المصرية بأنه : "العارف محمد قدس الله روحه " وقد تؤذن كلمة العارف بأنه كان صوفياً أو على صلة بالصوفية والتصوف، ويبدو انه قام مع ابنه زوجة في مكة ناسكاً بضع سنوات.

وعاد العارف محمد بزوجه وابنه إلى بلدته بالصعيد: قوص، وكانت حينئذ عاصمة الصعيد وباب المسافرين من مصر والمغرب والأندلس في البحر الأحمر من سواكن وعيذاب إلى الحجاز، وكانت بها حركة تجارية واسعة ونهضة علمية وأدبية ناشطة، وهى منشأ البهاء ومرباه، فيها تلقن العلم والأدب والشعر. وتعرف في أثناء ذلك على خدنه ورفيقه ابن مطروح، وانعقدت بينهما صداقة حتى الممات. وفى ديوانه قصيدة مدح بها الملك المنصور حفيد صلاح الدين وكان قد ولى شئون مصر بعد أبيه العزيز فترة قصيرة سنة ٥٩٥ وأغلب الظن أنه أرسل بها إليه من قوص وهو لا يزال في الرابعة عشرة مما يدل على أن ملكته الشعرية تفتحت في سن مبكرة.

وينشد ابن خلكان له أبياتاً من قصيدة مدح بها جلدك التقوى وإلى دمياط سنة ٦٠٥ وأكبر الظن انه أرسل أيضاً بها إليه من قوص. ونراه في سنة ٦٠٧ يقدم مدحه لوالى بلدته

(١) انظر في ترجمة البهاء زهير وشعره ابن خلكان ٣٣٢/٢ والنجوم الزاهرة ٦٢/٧ وحسن المحاضرة ٥٦٧/١ ، ٢٣٣/٢ وشذرات الذهب ٢٧٦/٥. و " البهاء زهير " : بحث يقلم الشيخ مصطفى عبد الرازق. وقد طبع ديوانه بكمبردج سنة ١٨٧٦ بتحقيق بلمر مع مقدمة وتعليقات، وطبع في القاهرة مراراً وفى بيروت، وبعض الكتب والرسالات العلمية التى ذكرتها فى المقدمة.

قوص: مجد الدين إسماعيل اللمطى يهنته فيها بولايته على أعمالها، وأعجب به اللمطى فاتخذه كاتباً له، وظل يعمل معه نحو عشر سنوات، ثم أخذت العلاقة تفتر بينهما ويبدو من استعطافاته في بعض أشعاره أنه عزله من منصبه فهاجر من بلدته إلى القاهرة ويظن بعض الباحثين أن هذه الهجرة حدثت في سنة ٦١٩، (يقول د. شوقى ضيف): وفى رأينا أنها تسبق هذا التاريخ بسنة أو أكثر إذ نراه يهنئ السلطان الكامل الأيوبي في انتصاره العظيم سنة ٦١٨ على الصليبيين وطردهم من دمياط أو طرد فلولهم إلى البحر المتوسط وما وراءه. ويأخذ في دعم صلته بأبناء السلطان الكامل منذ هذا التاريخ، ويحاول الاتصال بابنه الملك المسعود صاحب اليمن حين قدم إلى القاهرة سنة ٣٢١ ويقدم له مدحتين، ويخف على قلب أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب ويلحقه بخدمته.

ويصحبه معه حين أصبح في سنة ٦٢٩ نائباً عن أبيه في حكم بعض البلدان الشرقية في نواحى الفرات. وعاش البهاء مع الملك الصالح في رغد، ينعم بالحياة ويهنأ بها. وينتقل معه في بلدان إماراته، غير أنه لم ينس موطنه، فقد ظل يذكره وظل لا ينسي أيامه فيه وأصدقاءه، ولا ينسى نيله الغدق ورياضه ومراكبه المصعدات المنحدرات، ويتلهف على العودة إلى واديه والتملى بجماله واكتحال عينيه بحسنه وبساكنيه وكل ما فيه.

ويستولى الملك الصالح في سنة ٦٣٦ على دمشق فيتحول معه إليها ويتملى بغوطتها ورياضها، ولا يلبث الملك الصالح أن يفكر في الاستيلاء على أملاك داود ابن عمه صاحب الكرك في جنوبي الأردن وينزل نابلس، غير أن مؤامرت تحاك له، ويعتقل بسببها عند ابن عمه داود في الكرك، ويظل البهاء زهير بنابلس حافظاً لعهده. وترد إليه حريته، ويتجه إلى مصر فيستولى من أخيه الصغير العادل على مقاليد الحكم بها سنة ٦٣٧ ويولى البهاء زهير ديوان الإنشاء، والبهاء يكاد يطير فرحاً برجوعه إلى موطنه وتعظم منزلته عند الملك الصالح ويصبح مستشاره الأعلى وأمين سره، وكان خيراً نبيلاً فنفع – كما يقول ابن خلكان – خلقاً كثيراً بحسن وساطته عنده وجميل سفارته ومن حين إلى حين كان يرحل مع الملك الصالح

إلى دمشق، وفى آخر رحلة لهما هناك جاءهما خبر الحملة الصليبية على دمياط بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا، وتصادف أن كان الملك الصالح مريضاً، فصمم على منازلة لويس وجيشه في أقرب فرصة، وحمل من هناك في محفة حتى نزل بطناح بالقرب من المنصورة في شهر شعبان المحرم سنة ٦٤٧ ومضى يستعد للقاء الصليبيين وهو يجاهد المرض جهاداً عنيفاً حتى شهر شعبان إذ لبي نداء ربه. وقبيل وفاته بقليل عزل البهاء زهير من منصبه ويذكر المؤرخون أن ذلك كان بسبب تقصيره في الالتفات إلى إشارة كان قد كتبها الملك الصالح على كتاب كان مرسلاً لابن عمه داود صاحب الكرك، مما أغضب الملك الصالح ونظن أنه رجع ذلك السهو إلى تقدمه في السن، فأعفاه من منصبه وأسنده إلى نائبه فخر الدين ابن لقمان. ويقال إنه حاول بعد وفاة الملك الصالح إعادته إلى منصبه، وكأنما عز ذلك على البهاء فلم يقبل تقلده، وقيل :قبله فترة ثم استعفى منه. وفى ديوانه مدائح مختلفة أرسل بها إليه انتظاراً لبعض رفده، ولزم بيته نحو ثمانى سنوات عرف فيها شظف العيش بعد رغده ومرة بعد حلوه إلى أن فارق دنياه سنة ٦٥٦ في وباء حدث بالفسطاط.